حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به . العدد الثاني . شهر رمضان ١٤٣٣هـ / آب . ٢٠١٢م

٢

مرقد الشهيد مسلم بن عقيل عليه السلام سنة ١٩٣٥م

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

مدينة الكوفة

في المراجع الجغرافية العربية منذ تأسيسها وحتى القرن الثامن الهجري(*)

الأستاذ الدكتور علي صاحب طالب الموسوي

الدكتورة سلمى عبد الرزاق عبد الشبلاوي

مقدمة البحث

بهدف البحث إلى إعطاء صورة واضحة ومتكاملة عن مدينة الكوفة من خلال ما ورد عنها في الفكر الجغرافي العربي وبما يتعلق الأمر بنشأتها وتطورها وخلال حقبة تاريخية استمرت حتى القرن الثامن الهجري حيث توالى عليها التدهور والخراب. ترجع أسباب اختيارنا لهذا الموضوع على الأهمية الكبيرة والمكانة المتميزة لمدينة الكوفة كونها شغلت مكانة علمية ودينية عكست أوجه تطورها الحضاري لم تسبقها في ذلك البصرة ولا المدائن حيث اختصت الكوفة عن سائر المدن بقدسيتها فقد أثنى عليها القرآن الكريم وأبان تلك القدسية بقوله تعالى: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، فالربوة كما فسرها الإمام علي(عليه السلام) تعني الكوفة والقرار هو المسجد والمعين تعني الفرات، كما جاء ذكرها أيضاً في قوله جلّ وعلا ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾. فالتين هو المدينة والزيتون بيت المقدس وطور سينين تعني [الكوفة] والبلد الأمين هو مكة (تاريخ الكوفة: للمؤرخ الشهير السيد حسين بن السيد أحمد البراقي، ص٣٦).

لقد ازدادت مكانتها بعد أن أصبحت عاصمة للإمبراطورية العربية الإسلامية خلال خلافة الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام) إذ قال عنها: (الكوفة كنز الإسلام وسيف الله ورمحه يضعه حيث يشاء). كما قال عنها الخليفة عمر بن الخطاب(رض) مخاطباً سعد بن أبي وقاص عن الكوفيين: (هم رمح الله وكنز الإيمان وجمجمة العرب يحرسون ثغورهم يمدون الأمصار). ووصفها اليعقوبي بقوله: (إن الكوفة مدينة العراق الكبرى والمصر الأعظم وقبة الإسلام ودار هجرة المسلمين، فهي أول مدينة اختطها المسلمون في العراق وهي من أطيب البلدان وأفسحها وأغناها وأوسعها)، ولم يقف الأمر عند ذلك فقد كان لمكانتها أثر في نفوس الباحثين من غير العرب فقد أعطى السير لويس ماسنيون (المستشرق الفرنسي) وصفاً رائعاً لها، إذ يقول: (بأن الكوفة تعرض لنا صورة واضحة في التمصير وتثبيت القبائل البدوية لم تكن عليها أختها البصرة ولا دمشق ولا الفسطاط ولا القيروان) وحظي من سكن أرض الكوفة بمكانة عند المسلمين فاصبح محط أنظار الناس. فقد ورد في ذكرهم قول الخليفة عمر(رض) بانهم (راس العرب) ويصفهم كذلك (وجوه الناس)، وأن الكوفة قبلة الإسلام يأتي على الناس زمان لايبقى مؤمن إلاّ وهو بها أو يهوى قلبه إليها.

فرضت طبيعة بحثنا وخصوصيته أن ينصب ما ورد فيه على ما كتبه الجغرافيون العرب القدماء. عن طبيعة البيئة الجغرافية التي نشات فيها وما تميزت به من خصائص في طبيعة السطح والتربة والمناخ وموارد مائية والتي ساهمت في اختيار موضعها وتطوره. واتخاذها عاصمة للخلافة العربية الإسلامية فيما بعد، وحاولنا وبقدر المستطاع أن يكون بحثنا هذا ذا اتجاه ومنحى متميز عمّا كتب عن الكوفة والذي تناولها تاريخياً مما تطلب أن تكون الدراسة ذات وجهة جغرافية متخصصة تطلبت البحث والاستقصاء الطويلين في عدد كبير من المخطوطات والتراجم والمصادر الجغرافية القديمة والنادرة التي كانت تحوي الكثير عن الكوفة بحيث أغنت بحثتنا وبما يتعلق بالجوانب الجغرافية فقط

الفصل الأول

الموقع الجغرافي لمدينة الكوفة ونشأتها

أولاً: الموقع الجغرافي:

تشير مصادر الفكر الجغرافي بان الكوفة كانت تحتل موضعاً جغرافياً ضمن أراضي انتشرت فيها ديارات ودساكر وقرى صغيرة تشكل جزء سهلياً من الضفة اليمنى للفرات الأوسط ويقع هذا الموضع شمال شرق مدينة الحيرة، كان

(*) عن: مجلة دراسات نجفية س١ ع١ السنة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م ص١٣٩-١٧٠.

يطلق عليه اسم (سورستان)[1] أو خد العذراء، كما يشكل هذا الموضع لساناً من الرمل يمتد بين الأراضي الصحراوية من جهة والفرات من جهة أخرى تخترقه شبكة من الأنهار فضلاً عن تربته الخصبة.

يقع هذا الموضع عند دائرة عرض إحدى وثلاثين درجة وثلثين بينما يقطعه خط طول تسع وستون درجة ونصف شرقاً، ويتضمن هذا الموقع مساحة بلغت حوالي ٦٠ ستة عشر ميلاً وثلثي الميل) فيما بلغ عدد سكانها حوالي خمسين الف دار للعرب، أغلبهم من ربيعة ومضر وأربعة وعشرين الف دار لسائر العرب وسبعة آلاف دار لليمنيين (ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج٢٤، ص٤٩٢).

يعد هذا الموقع الجغرافي ذا أهمية كبيرة حيث عده البعض بانه كان ثغرة من ثغور البادية ونقطة ارتكاز لتبادل البضائع والسلع بين سكان بلاد فارس من جهة وسكان شبه الجزيرة العربية وبادية الشام من جهة أخرى، كما كان جسراً للاتصال بين التجمعات العربية المنتشرة في أرض البادية وأهل المدن والقرى من الآراميين الذين سكنوا هذا الموقع قديماً، فضلاً عن أشراف هذا الموقع على (جسر الزوارق) المنصوب على نهر الفرات والذي يؤدي إلى الطريق التجاري الكبير الذي يربط أعالي آسيا بأقصى اليمن (شكل رقم١).

شهد الموقع الجغرافي لمدينة الكوفة تطوراً بعد إنشائها وتوسعها بحيث أثر في مجمل جوانبها بعد تمصيرها حتى وصلت أوج عظمتها خلال العصور الإسلامية اللاحقة بحكم تطورها في الجوانب العلمية والدينية حتى وصفها الاصطخري (بانها تضاهي البصرة من حيث السعة والبناء) واهتدى بها الحجاج عند بناء مدينة واسط والمنصور عند بناء بغداد فيما بعد، كما عدت مكانتها بحكم موقعها مع البصرة قمة التطور الذي تحولت إليه كنوز المدائن وحضارة بابل والحيرة حتى إذا قيل العراق فمعناه البصرة والكوفة إذ كان يطلق عليهما (بالعراقين) (المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص٥٤). ويعكس لنا الموقع الجغرافي لمدينة الكوفة بأن التاريخ العربي الإسلامي خلال القرن الأول للهجرة هو تاريخ الكوفة والذي ارتبط بموقعها هذا وما نتج عنه من تطور شمل نواحيها الاقتصادية والسياسية والإدارية والعسكرية فاصبحت تدير بعد ذلك شؤون الإقليم الأوسط من العراق وما اتصل به إدارياً من إقليم الجزيرة في شمال غرب العراق والأقاليم المحيطة في أرمينيا وآذربيجان وخراسان وبلاد فارس.

(١) سورستان: كلمة فارسية مشتقة من الاسم الفارسي شورستان والذي يعني الصحراء.

ثانياً: اشتقاق تسمتيها:

اختلفت الآراء التي وردت في مصادر الفكر الجغرافي والتاريخي ومعاجم اللغة حول تفسير تسمية وأصل كلمة الكوفة، فقد أوضحنا بان الكوفة لم تكن معروفة بهذا الاسم قبل تمصيرها إذ كان لموضعها تسميات متعددة منها سورستان أو الصحراء وخد العذراء ولم تطلق تسمية الكوفة على هذا الموضع إلاّ بعد أن بنى العرب مدينتهم فيه حيث أطلقوا عليه هذا الاسم.وإذا أردنا البحث في أصل كلمة (كوفة) فينبغي علينا أن نستعرض الآراء التي وردت عند اللغويين والمؤرخين والجغرافيين العرب حول ذلك.

يؤكد السير لويس ماسنيون في كتابه (خطط الكوفة) بأن كلمة (الكوفة) سرياني عرف عند طائفة السريان، حيث يبدو أن خصب الموضع قد جذب كثيراً من السريان إلى إقامة ديارات لهم وبناء منازل هناك لكثرة الجداول والمياه التي تأتي من نهر الفرات، وقد كان في العادة أن تبنى تلك الديارات حيث يتوفر الماء ويكثر النبات، وكان هذا الموضع معروفاً آنذاك باسم عاقولا أو (باكيولا) واللتان تعنيان (حلقة وما يشبه الدائرة) (ماسنيون، خطط الكوفة وشرح خريطتها، ص٢٥).

ويميل الباحث العراقي يعقوب نعوم سركيس إلى القول بأن تسمية الكوفة آرامي حرّف من كلمة (كوبا) وحاول أن يفسر لنا كلمة (كوبا) فذكر أنه ورد في أحد المصادر للكنيسة السريانية بأن الكوفة كما يقال لها (كوبا وكملا) بكاف فارسية (عرف عاقولا) ترعاه الإبل، ثم حرفت بعد الفتح الإسلامي وقالوا (كوفة) حيث عدوها من العربية (الجنابي، تخطيط مدينة الكوفة من المصادر التاريخية والأثرية، ص١٦).

وأوردت المصادراللغوية بان كلمة (كوفة) بالضم هي المصر المشهور بارض بابل من سواد العراق حيث سميت الكوفة لاستدارتها أخذاً من قول العرب (رأيت كُوفاناً وكَوفاناً) بضم الكاف وفتحها للرمال المستديرة (ياقوت الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، ص٤٩٠). كما أخذت الكوفة من الكوفان والذي يرد على لسان العرب (هم في كُوفان)، وورد اشتقاق لكلمة كوفة أيضاً بانه يعني (القطعة من الأرض) حيث يقال: (أعطيت فلاناً كَيفةً) أي قطعة، فالكوفة قطعة من هذا انقلبت الياء فيها واواً لسكونها وانضمام ما قبلها (ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص٤٩٠)، كما أشارت مصادر الفكر الجغرافي بأن كلمة كوفة مشتقة من البيئة الطبيعية إذ أن كل رمل خالطه حصى فهو كوفة (المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص١١٦) على حين يرد البعض على أن الكوفة سميت نسبة إلى جبل صغير في وسطها يقال له (ساتيدما) أي (كوفان) اختطت عيه مهرة موضعها، وكان الجبل يحيط بها كالكفاف عليها

ومرتفعاً عنها فسميت به (معن حمدان علي، مباحث عراقية في الجغرافية والتاريخ، ص١٣٩).

وورد بأن سعد بن أبي وقاص عندما أراد أن ينزل الموضع هذا قال للمسلمين (تكوفوا) في هذا المكان أي (اجتمعوا) فيه، وقال لهم (كوفوا هذه الرمال) أي اجمعوها، وتشير معاجم اللغة بما يعزز الاشتقاق الطبيعي لمدينة الكوفة، فقد ورد في القاموس وشرحه تاج العروس أن (الكُوفة) بالضم تعني الرمال الحمراء المجتمعة، أو أن كل رملة حمراء تخالطها حصباء فهي كوفة، وفي قاموس المحيط ورد بأن (الكُوفة) بالضم تعني الرملة الحمراء المستديرة، أو كل رملة حمراء تخالطها حصباء.

أما مختار الصحاح فيرد فيه بأن الكوفة هي (الرملة الحمراء) وفي المصباح المنير فقد ورد فيه بأن الكوفة مدينة مشهورة في العراق سميت لاستدارتها، وأخيراً فقد ورد بأن المنطقة التي اجتمع فيها الجند سميت (كوفة الجند) كما في قول الشاعر (عبد ه بن الطيب العبشمي):

إنَّ التي وَضَعَتْ بيتاً مُهاجِرةً

بكوفةِ الجُندِ غالَتْ ودها غولُ

(محمد حسين الأعرجي، الشعر في الكوفة، ص١١٠).

يظهرلنا بأن معظم المصادر تتفق بأن تسمية الكوفة مستمدة من البيئة الطبيعية التي نشات فيها، فالقاصد من الكوفة إلى النجف أو العكس لايجد في طريقه غير هذه الرمال الحمراء التي تخالطها الحصى، وأن العرب عندما ارتادوا هذا الموضع شاهدوا تلك الرمال فاسموها باسمها.

نشأة مدينة الكوفة:

تتفق معظم المصادر الجغرافية والأريخية القديمة على أن الكوفة كانت في الأصل مجموعة من الديارات والقرى أقيمت عند الضفة اليمنى لنهر الفرات أو ما يسمى بنهر العلقمي حيث أن نهر الفرات كان يمر بمدينة هيت سابقاً كان ينقسم إلى فرعين رئيسيين أحدهما يمر بمدينة (سورا) ويجتازها إلى النيل ويسمى بنهر (سورا) والثاني يمر بمدينة الكوفة والذي يعرف بنهر العلقمي (طاهر العميد، تخطيط المدن العربية الإسلامية، ص٢٢٩). وهذا الموضع على النهر أُختير بعد ذلك ليكون مدينة للكوفة.

يعتبر تأسيس مدينة الكوفة أحد الضرورات الحربية التي تطلبتها الفتوحات الإسلامية لبلاد فارس عبر أرض السواد وخصوصاً بعد أن تقدمت الجيوش الإسلامية لبلاد فارس عبر أرض السواد وأصبحت المسافة طويلة بين المدينة حاضرة الدولة العربية الإسلامية وبين ميادين القتال مما يتطلب الأمر أن يجد المسلمون لهم نقطة ارتكاز تكون بمثابة المعسكر الثابت والقريب لميادين القتال فضلاً عن الإحساس الذي تولد عند العرب بعد الفتح العربي للعراق بضرورة الاستقرار فعمدوا إلى البحث عن منطقة تصلح لذلك فاستقر رأيهم أولاً عند المدائن والتي لم تلائمهم ثم الكوفة ثانياً.

يبدأ تاريخ نشأة الكوفة الفعلي بعد انهيار الحكم الساساني في العراق إذ أثبتت التحريات الاستكشافية بأن الكوفة إسلامية المنشأ وأنها ثاني المدن العربية الإسلامية التي أقامها العرب المسلمون خارج الجزيرة العربية وأنها مصرت سنة ١٥هـ (المسعودي، مروج الذهب، المصدر السابق، ص٢١١). بينما يرى آخرون بأن سنة تمصيرها قد تم سنة ١٧هـ/٦٣٨م وفي شهر محرم لسنتين وشهرين بعد موقعة القادسية (محمد حسين الزبيدي، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الأول الهجري، ص٢١).

أظهرت لنا آراء الجغرافيين والبلدانيين العرب بأن الموضع الذي تم الاتفاق عليه لم يأت اختياره اعتباطياً، وإنما كان بعد بحث دقيق ومتواصل يمكن ادخاله تحت عاملين أساسيين هما:

١-العوامل العسكرية:

أوضحت لنا الفتوحات العربية بأنّ العرب عندما توغلوا في فتوحاتهم خارج أرض الجزيرة العربية باتجاه الشمال، ومن خلال الانتصارات التي تحققت في حروبهم مع الفرس في جبهة المدائن دفعت القائد سعد بن أبي وقاص إلى التفكير في اتخاذ موضع أو مخيم يستخدمه كنقطة ارتكاز يستريح فيه الجند بعد القتال ويتابع من خلاله تقدم جيشه في سوح القتال، كما يشكل هذا الموضع حماية له ولجيشه عند التراجع فضلاً عن اتخاذه مركزاً لتموين ساحات القتال بالجند والمؤن، وقد وصفه عمر(رض) بقوله: كونه دار هجرة ومنزل جهاد (مصطفى عباس، العوامل التاريخية لنشاة وتطور المدن العربية الإسلامية، ص٨٦).

أظهرت المتغيرات العسكرية بأن العرب هم بامس الحاجة لمستقر لهم ولعوائلهم المرافقة لهم وأن يكون هذا الموضع المنتخب على وفق الأسس التي شدد عليها المسؤولون العرب آنذاك والتي منها أن يكون هذا الموضع على اتصال سهل ووثيق بمركز الخلافة، وأن تتفق مواصفاته مع الستراتيجية العسكرية العربية في مسالة الانسحاب باتجاه الصحراء عندما يواجه المقاتلون العرب مصاعب عسكرية، وتتفق تلك المواصفات مع الأرض التي نشات فيها الكوفة إذ أنها تقع على حافة الصحراء المتصلة بشبه الجزيرة العربية ولا يفصل بينها وبين العاصمة ماء أو جسر والذي يعزز المكاتبات التي كانت

بين عمر(رض) وسعد بن أبي وقاص والتي منها (لاتجعل بيني وبينهم بحراً...) (البلاذري، فتوح البلدان، ج٢، ص٣٣٩) وفي رواية أخرى (لاتجعل بيني وبينهم بحراً وعليك بالريف)، فضلاً عما ورد من عبارات: مثل (على طرف البر) أو (قريب من الريف) أو (على طرف الصحراء) حيث كلها تتضمن المدلول العسكري وتبرز سمات مشتركة في تاسيس مدينة الكوفة وتتوافق مع المفهوم الستراتيجي العسكري في تلك الفترة المبكرة من تاريخ نشاة المدن العربية.

ب- العوامل الجغرافية:

تعكس لنا كتابات الجغرافيين والمؤرخين العرب بأن اختيار العرب لمواقع محددة لتكون مدناً ومستقراً لهم أن تاخذ بنظر الاعتبار عناصر البيئة الجغرافية والتي عدها البعض بانها من العوامل الضاغطة في نبذ العرب لبعض المواقع وتفضيل أخرى، وقد تبين لنا بأن انتقال الجيوش العربية الإسلامية من البيئة الصحراوية ذات الخصائص الطبيعية المحددة إلىٰ بيئات جغرافية مغايرة، له تاثيره الكبير في أوضاعهم الصحية، فعند استقرارهم في المدائن والتي تقع ضمن أرض طينية وشطآن وحلة رطبة الجو تنتشر فيها الحشرات والأمراض أثرت على المقاتلين العرب حتى ظهر ذلك في كتابات أحد المقاتلين إلى الخليفة عمر(رض) بقوله: (إن العرب قد أشرفت بطونها وجفت أعضاؤها وتغيرت ألوانها) (أحمد عادل كامل، فتوح الشرق بعد القادسية، ص١٦١)، كما أن استفسار الخليفة عمر(رض) عنهم بقوله: (أنبئني ما الذي غير ألوان العرب ولحومهم)، فرد على ذلك سعد بن أبي وقاص قائلاً: (إن العرب خددهم وكفى ألوانهم وخومة المدائن ودجلة)[1]، إذ أن جو هذه المنطقة الرطب لم يلائم العرب الخارجين من أعماق الصحراء الحارة الجافة فاستوخموها واستوبؤوها (البلاذري، فتوح البلدان، مصدر سابق، ص٢٢٧)، ونظراً لهذه الظروف المناخية والصحية فقد بدأ البحث عن منطقة أخرىٰ تتوفر فيها الظروف المناخية والتي تجمع بين خصائص البيئة الصحراوية والموقع الجديد.

برز أثر العوامل الجغرافية في اختيار الموضع الجديد من خلال القرار الذي اتخذه سعد بن أبي وقاص بترك موضع المدائن والانتقال إلى موضع جديد في منطقة الفرات الأوسط يقترب من الصحراء ويحمل بعض خصائص البادية المناخية، وإن هذه البيئة الجغرافية الجديدة تشبه البيئة التي خرجوا منها بحيث أدرك عمر(رض) بثاقب فكره أهمية العامل الجغرافي في اختيار البيئة التي تصلح لاستقرارهم بحيث يظلوا محتفظين بنشاطهم وحيويتهم وقوتهم، فضلاً عن ذلك فإن المنطق العسكري يعزز ذلك الاختيار إذ لايوجد فاصل طبيعي بين هذا الموضع وبين مركز القيادة في المدينة كما أكد الخليفة عمر(رض) على ذلك بقوله: (لاتجعلوا بيني وبينكم ماء حتى إذا شت أن آتيكم ركبت ناقتي فاتيتكم...) (محمد أحمد حسونة، أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص٢٨)، كما أن هذا الموقع يوفر للقوات العربية إمكانية التراجع إلى الصحراء إذا ما تعرضوا لهجوم من القوات الفارسية الآتية من الشرق وأن ما يعزز أثر العوامل الجغرافية في نشاة مدينة الكوفة كونها كانت موضعاً لعدد من القرى والديارات والتي استقرت فيها لخصوبة تربتها وكثرة الجداول التي تخرج من نهر الفرات، إذ جرت العادة أن تبنى تلك الديارات حيث يتوفر الماء والتربة الخصبة وترتفع الأرض عما يجاورها ليجنبها أخطار الفيضانات وتجمع المياه وما ينتج عنه من تكون برك آسنة كما كانت عليها المدائن.

يتضح لنا مما تقدم بأن نشاة مدينة الكوفة هو نتاج تفاعل العوامل العسكرية والجغرافية إذ أن التفكير بترك موضع المدائن والأنبار إلىٰ موضع الكوفة هو حربي بحت أولاً كما أن موضع المدائن لا يصلح من الناحية الحربية لوجود عائق طبيعي هو الفرات مما يتسبب عنه وعن بحيرة الحبانية من فيضانات ومستنقعات ولبعدهما عن العاصمة المدينة ثانياً فضلاً عن ذلك فقد كان ضغط العوامل الجغرافية أكثر وضوحاً في التحول عنهما باتجاه الكوفة والذي حدده الخليفة عمر(رض) في قوله لسعد (أنزل العرب منزلاً غربياً ومرتفعاً عن المياه)، فكان البحث عن هذا الموقع المناسب فوقع الاختيار على أرض ارتفعت عن الفلاه معروف بنباتاته من الخزامىٰ والأقحوان والشيح والقيصوم والشقائق وغيرها وكان يعرف بسورستان أو خد العذراء (الزبيدي، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة، مصدر سابق، ص٢٢)، كما يتميز هذا الموضع بصفات مناخية تتمثل بصفاء الجو وعذوبة النسيم خاصة إذا كان هبوب رياحها شمالياً غربياً.

وقد كتب سعد يعلم الخليفة بهذا الموضع والذي يقع على الضفة اليمنى لنهر الفرات بقوله: (إني نزلت الكوفة منزلاً بين الحيرة والفرات برياً وبحرياً) (عيسى سلمان وآخرون، العمارات العربية الإسلامية في العراق، ص٥٦) فجاءت موافقة الخليفة على هذا الاختيار بجوابه لسعد (أن العرب بمنزلة الإبل لا يصلحها إلاّ ما يصلح الإبل، فارتد لهم موضعاً عدنا ولا تجعل بيني وبينهم بحراً).

ويلاحظ أيضاً بأن العوامل الجغرافية أظهرت بجلاء أن اختيار موضع مدينة الكوفة والذي يتمثل بارتفاعها ووفرة مياهها وجمعها بين الخصائص المناخية للبر والبحر وما تمتلكه من خصوبة في التربة تعتبر أهم الأسس في نشاتها

(١) خددهم تعني أضعفهم، وكفى ألوانهم تعني غير أو بدل ألوانهم.

فضلاً عن كونها قريبة الشبه بمدينة البصرة كما جاء في وصفها (بأنها قريبة من البصرة في الكبر. هواؤها أصح وماؤها أعذب من ماء البصرة وهي على الفرات) (الاصطخري، مسالك المماليك، ص٨٣).

تخطيط مدينة الكوفة وتركيبها الداخلي:

تقدم لنا مصادر الفكر الجغرافي واعتماداً على ماذكره الجغرافيون بأن تخطيط مدينة الكوفة جاء بعد تخطيط مدينة البصرة بسنتين أي (١٧هـ/٦٣٨م)، وأن عناصر تخطيطها تشبه إلى حد كبير العناصر التي اختطت عليها البصرة بعد أن توسعت مساحتها فوصلت على ما يقرب من مائة وخمسة وثلاثين كيلومتراً مربعاً، بطول بلغ حوالي خمسة عشر كيلومترات وعرضاً قدره تسعة كيلومترات (كامل سلمان الجبوري، تاريخ الكوفة الحديث، ج١، ص٢٠).

استخدم العرب عند استقرارهم في المدينة القصب والبردي في بناء وحداتهم العمرانية، حيث استأذنوا الخليفة عمر(رض) فوافق على ذلك بقوله: (لا أخالفُكم فابتنوا بالقصب)، فاستخدموا هذه المادة والتي كانت تتوفر بكثرة في بطائح الكوفة.

يعد مسجد الكوفة أول وحدة عمرانية اتُخذت عند تخطيط المدينة، وقد خُط في منطقة القلب تبعه وضع تخطيط (دار الإمارة) ثم خطط المناهج والدور، وقد كان موضعا المسجد ودار الإمارة لا يبعدان عن نهر الفرات إلا بنحو الكيلومتر والربع تقريباً (شكل رقم٢).

تعتبر المادة الأولية التي اعتمدها العرب في تخطيطهم لمدينتهم والمتكونة من القصب والبردي لاتستطيع أن تقاوم الظروف الطبيعية إذ تعرضت المدينة لنشوب حريق فاحترق ثمانون عريشاً ولم تبقَ فيها قصبة (البراقي، مصدر سابق، ص١١)، فخاطب سعد الخليفة يستأذنه أن يكون بناء المدينة باللبن والطين فاجابهم بقوله: (افعلوا ولا يزدن أحدكم على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا في البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة) (د.يوسف خليف. حياة الشعر في الكوفة، ص٢٥).

أصبح المسجد مكاناً متميزاً في بنائه وسعته لإقامة صلاة الجمعة ولدوره ومكانته السياسية والإدارية، وقد كانت له قدسية متميزة عند العرب والمسلمين، فقد ورد عن قدسيته بأن في زاويته (فار التنور) وعند الاسطوانة الخامسة (صلى إبراهيم)، وفيه عصا موسى وشجرة اليقطين ومصلى نوح(عليه السلام)، وفي وسطه روضة من رياض الجنة لو علم الناس ما فيه من فضائل لأتوه حبوا (القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص٢٥).

تم توزيع القبائل والمناهج ابتداءاً من المسجد الجامع فاصبح المجمع العمراني المدني لأهل الكوفة موزعاً على سبعة أقسام سكنية عرفت (أسباعاً) صارت الأساس الطوبغرافي للمدينة، ووضع بين هذه الأقسام السبعة طرق عرفت بالمناهج وكان عددها خمسة عشر منهجاً عرضها تراوح بين أربعين ذراعاً للقريبة من المسجد وما يليها ثلاثين ذراعاً وبين ذلك عشرين ذراعاً، بينما بلغ عرض الأزقة سبعة أذرع فقط

وُزِّعت هذه المناهج توزيعاً منتظماً ابتداءاً من المسجد، فقد تفرع فيه خمسة عشر منهجاً من جهته الشمالية وأربعة مناهج من جهة قبلة الصحن. وثلاثة مناهج من شرق الصحن وثلاثة مناهج أخرى من جانب الصحن القريبة. وأصبحت هذه المناهج فيما بعد شوارع عامة سميت (سككاً) وضعت بينها مفارق طرق عرفت (جهارت سوج)[1].

اتخذ التوزيع القبلي هذه المناهج أساساً مهماً في تنظيم بنية المدينة الداخلي إذ تم الالتزام به في توزيع المحلات على جانبي هذه المناهج آخذين بنظر الاعتبار مايطرأ على المدينة من توسيع في المستقبل.

تعد الأسواق أحد المظاهر المهمة التي أخذت أيضاً بنظر الاعتبار عند تخطيط مدينة الكوفة، فقد كانت الأسواق في بداية أمرها غير محددة في مكان واحد إلاّ أنها جمعت فيما بعد في سوق رئيسي واحد وصفه لنا اليعقوبي بأنه كان يمتد من قصر الإمارة (أي دار الإمارة) والمسجد الجامع حتى دور القبائل في الجنوب، وكان هذا السوق جليلاً وكثير الخيرات (المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مصدر سابق، ص١١٦).

الفصل الثاني

البيئة الطبيعية لمدينة الكوفة

"في موارد الجغرافيين العرب"

أ: طبيعة السطح – التضاريس

تشير لنا مصادر الفكر الجغرافي بأن الموقع الجغرافي الذي شغلته مدينة الكوفة وعلى الضفة اليمنى لنهر الفرات هو في ضمن منطقة السهل الرسوبي العراقي وإن طبيعة أرضه تكونت بفعل عمليات الأرساب التي كونتها مجاري الأنهار حيث ترسبت الذرات الدقيقة عند ضفاف النهر بينما الأكبر حجماً تبتعد عن كتف النهر مُشكّلة لساناً من الرمل يتصل بهذا السهل من جهته الغربية وينحدر باتجاه يرتفع شرق نهر الفرات حتى حدود الهضبة الغربية، تبدأ طبيعة السطح بالارتفاع من منطقة ضفاف النهر (منطقة الكتوف) تبعاً لحجم الرواسب كما أنها تقل

(١) جهارت سوج: كلمة فارسية متكونة من مقطعين، جهارت وتعني: أربع و(سوج) وتعني اتجاه حيث تعني الجهات الأربع (ماسنيون، مصدر سابق. ص٧٠).

باتجاه الغرب والجنوب، وهذا الارتفاع جنّب موضعها الفيضانات المتكررة لنهر الفرات ومدنه التي تقع شمال الموضع أو جنوبه آنذاك، لذا فكان اختيار هذا الموضع يشار له بعبارات ذات مدلول جغرافي كان يرمز إلى طبيعة ارتفاعه ومنها (ادلك على أرض ارتفعت عن البحر وانحدرت عن الفلاة) (والمسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص٣٢٩)، وكذلك (ادلك على أرض ارتفعت عن المبقة[١]) وادلع البر لسانه في الريف، فما كان يلي الفرات فهو الملطاط[٢]، وما كان يلي الظهر فهو النجاف (ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج١، ص٢١٨).

تتصف طبيعة السطح هذه بالارتفاع عن الأراضي المجاورة سواء أرض الفلاة (الصحراء) في غربهِ أم الأهوار التي تقع إلى جنوبه، مما جعل ذلك الموضع لمدينة الكوفة يرتفع فوق مستوى الفيضانات، ويصل ارتفاعها إلى حوالي ٢٢متر فوق مستوى سطح البحر والذي يبعدها عن المناطق المجاورة المنخفضة التي تشغلها الأهوار والمستنقعات المعروفة باسم (البطائح)، أما الضفة الغربية من نهر الفرات لموضع الكوفة فهي أعلى من الضفة الشرقية يتراوح بين بـ (٥-٦) متر ويقل هذا الارتفاع كلما تقدمنا جنوباً.

تتكون طبيعة سطحها من أرض رسوبية خصبة بصورة عامة، أما مادون ذلك غرباً فهي أرض رملية تختلط بنسب من الحصى ترتفع مع الانحدار غرباً بحيث تؤلف طبيعة السطح مظهراً تضاريسياً تكون قشرته السطحية عبارة عن صخور رملية أو حجارة كلسية تقل فيها المستنقعات وتدخل في ضمن حدود النجف.

وكانت تلك الأراضي تقترب من ضفاف نهر الفرات أكثر من أراضي الحيرة والمدائن وهذه تدخل بين أرض سهلية تسقى بمياه النهر من جهته الشرقية على حين تدخل في ضمن بطون الوادي الصحراوي في جهته الغربية (جعفر محبوبة، ماضي النجف وحاضرها، ج١، ص٤)، وأن هذا الانخفاض من جهة الغرب والجنوب يدخلها في ضمن بحيرة ضحلة تشكل جزء من بحر النجف (اليعقوبي، البلدان، ص٧٩).

يعتبر هذا التكوين الطبيعي للأراضي التي تشغلها الكوفة آنذاك امتداداً طبيعياً للسهل الرسوبي العراقي المتصل من أطراف الصحراء لأرض بلاد الشام (بادية الشام) غرباً، وتتخللها مياه نهر الفرات وجداوله التي كانت تنتهي مياهها في الحيرة جنوباً، كما تتخلل طبيعة السطح هذه عدد من الجبانات[٣]، والتي تتخللها المزارع الواسعة والبساتين الغنية بأشجار الفاكهة فضلاً عن طبوغرافية سطحها يتميز بوجود ساحات وافية واسعة كانت تدعى بالصحاري (ماسينيون، مصدر سابق، ص٧١).

ب- البيئة المناخية

يعتبر المناخ أحد العوامل المؤثرة في نشوء وتطور المدن العربية قديماً ومنها مدينة الكوفة إذ حرص العرب أن تكون مدينتهم التي يختطونها ذات مواقع جغرافية تمنحها خصائص مناخية تتلاءم مع صحة الإنسان العربي وتجنبه انتشار الحشرات والهوام ووخومة الجو وأن توفر لهم مظاهر تحتاج لها النفس العربية التواقة لذلك.

تعكس هذه الخصائص لنا بدء ظهور وتطور المدن في العراق والتي تضمنت إدراك العلاقة بين المظاهر الصحية والخصائص المناخية حيث تم تحديد أفضل المناخات لمواقع المدن، فقد فضل العرب في اختيار مدنهم أن تتصف بنمط فصلي متميز مع تقلبات دائمة للطقس ودفء مقترن بأمطار تشجع على ممارسة الزراعة والرعي، لذا فإن مواقع المدن العربية الإسلامية والتي تقع في ضمن العروض المعتدلة في العراق كانت أكثر من غيرها تطوراً في الحركة المدنية الإسلامية لكونها تخضع لنظام الطقس المتقلب الذي تفرضه طبيعة الانخفاضات الجوية في القطر، فضلاً عن ذلك فإن مراكز الحضارة العربية قد انتقلت من مناطق ذات مواقع في ضمن مناخات مدارية أو شبه مدارية نحو مناخات معتدلة في القسم الأوسط والشمالي، فمن صنعاء ومأرب وعدن إلى الحيرة والحضر وتدمر قبل الإسلام، ومن مكة والمدينة والطائف إلى البصرة والكوفة في العصور الإسلامية اللاحقة.

يظهر لنا موقع مدينة الكوفة بأنه قائم وفق الأسس أعلاه بعكس ما كانت عليه مدينتهم السابقة المدائن والتي كانت قائمة على أرض طينية تخترقها شطآن تنتشر فيها الحشرات المسببة للأمراض، وأنها ذات جو وخم ذي رطوبة عالية. وهذا كله يخالف ما درج عليه ساكن الصحراء أو يغايره فلم توافق تلك الخصائص العرب فيها فأخذوا يبحثون عن موقع جديد فكان موضع الكوفة الذي هو أكثر ارتفاعاً عن مستوى سطح البحر من المدائن والبصرة وذو مناخ معتدل وجو رائق يبعدهم عن وخومة جو

(١) المبقة: بقَّ المكان وابق: كثر بقه وأرض مبقة: كثيرة البق (لسان العرب، مج١، ٢٣، مادة بق)..

(٢) الملطاط: طريق على ساحل البحر، والملطاط حافة الوادي وساحل البحر المتصل به ويعني ذلك شاطئ الفرات (لسان العرب: مج٢، ٣٩٠ بيروت ١٩٥٦م.

(٣) الجبانات: جمع جبانة، والجبانة بالتشديد الصحراء، وتسمى بها المقابر لأنها تكون في الصحراء تسمية للشيء بموضعه، وا لجبان ما استوى من الأرض في ارتفاع ويكون كريم المنبت، وقال ابن شميل الجبانة ما استوى من الأرض ولا شجر فيه ولا تكون الجبانة في الرمل ولا في الجبل، وكل صحراء جبانة. (لسان العرب، مج ٨٥/١٣/ مادة جبن..

المدائن ورطوبته فضلاً عن وقوعه في مهب الرياح الشمالية والتي تسهم في خفض درجة الحرارة والرياح الجنوبية التي تحمل معها خصائص البيئة عند مرورها فوق أشجار ونبات الخزامي والأقحوان والشيح والقيصوم وشقائق النعمان والذي استرعى أنظار العرب الباحثين عنه، وقد وصف هذا الموضع للكوفة (بأنها سفلت عن الشام ووبائها وارتفعت عن البصرة وعمقها وحرها، فهي مريئة مريعة إذا أتتها الشمال هبت مسيرة شهر على مثل رضراض الكافور وإذا هبت الجنوب، جاءتها بريح السواد وورده وياسمينه وخيريه وأترجه. ماؤها عذب وعيشها خصب).(ياقوت الحموي مصدر سابق ص٤٩٢).

فضلاً عن ذلك فقد كان لتردي الأوضاع الصحية للمقاتلين المسلمين في المدائن والتي كان من أهم أسبابها وخومة جوها أثرها في التفكير في البحث عن موضع جديد وقد دفع ذلك الخليفة عمر(رض) بأن يدرك بأن العرب لايلائمهم من البلدان والمناخ إلاّ ما يلائم ثروتهم الحيوانية فخاطب سعد (أن العرب لايصلحهم إلاّ ما يصلح الإبل فارتد لهم موضعاً عدنا) (البلاذري، فتوح البلدان، مصدر سابق ص٣٣٩) أي أنه ربط بين طبيعة البادية المناخية والمكان الذي سيكون مقراً لهم ولعوائلهم.

وبرز تأثير وخومة مناخ المدائن على أحوال العرب وتصرفاتهم بحيث كرهوا السكن في المدائن لأنهم استوخموها واستوباوها، وقد تذمروا من كثرة الذباب والغبار فيها، وقد ذكر لنا البلاذري بأن منطقة المدائن يكثر فيها البعوض حتى أن سعد كتب إلى الخليفة قائلاً له: أن الناس قد بعضوا وتأذوا من ذلك (البلاذري، المصدر السابق، ص٣٣٨).

يتضح مما تقدم بأن للمناخ دوراً كبيراً في اختيار وتطوير مدينة الكوفة لحرص العرب بأن تكون مدينتهم هذه ذات مواقع صحية خالية من الحشرات وبعيدة عن المباق غير موبوءة ففضلوها على المدن التي اختطت قبلها كالبصرة لصحة هوائها وعذوبة مياهها ومناخ كهذا لابد أن يجتذب إليه القبائل المتحضرة قبل القبائل البدوية.

الفصل الثالث

الحياة الاقتصادية في مدينة الكوفة

يعتبر انتقال العرب واستقرارهم في مدينة الكوفة ذا فائدة كبيرة في مجمل حياتهم الاقتصادية والاجتماعية، إذ أن حياة الاستقرار وما رافقها من تحضر رغم بقاء القيم والمفاهيم القبلية تعد بداية للحياة المدنية والحضرية التي عكست تحولاً في مناحي حياتهم الزراعية والحرفية والتجارية ساعدت فيما بعد في سعة مدينة الكوفة وتعدد أنشطتها الاقتصادية والتي منها:

أولاً: النشاط الزراعي:

تعد الزراعة أول مظهر من مظاهر الحياة الاقتصادية في مدينة الكوفة والتي زاولها السكان منذ أن وطئت أقدامهم فيها لما تمتلكه من تربة خصبة وأنهار دائمة الجريان فضلاً عن خصائصها المناخية والتي تختلف عما كانت عليه مدينتهم السابقة (المدائن)، كما وجد العرب في هذه المدينة أرضاً تختلف عن أرضهم السابقة سواء في الجزيرة العربية أم في المدائن فاتجهوا لممارسة الزراعة والتي صارت حرفتهم الرئيسة.

مورست الزراعة في الكوفة اعتماداً على مياه الري من نهر الفرات والجداول والقنوات المتفرعة منه لأن الأمطار غير كافية أولاً لممارسة الزراعة وتأخر نزولها ثانياً مما دفعهم ذلك للاعتماد على مياه الري (الزراعة الإروائية) والتي من خلالها تم ابتكار وسائل جديدة ساهمت في تطوير عمليات الري ووسائلها بشكل يتفق مع حاجتهم إليها، وقد ساهمت سياسة الولاة في الكوفة أيضاً ومن خلال توجهات الخلفاء لهم في تطوير هذه الحرفة.

بدأت حرفة الزراعة تتطور عندما تم توزيع الأراضي الزراعية وتمليكها للمقاتلين أولاً وتشجيعهم على إحياء الأرض الموات ثانياً، فقد منح من أحيا أرضاً مواتاً حق ملكيتها حيث ورد: (فمن أحيا أرضاً مواتاً ليست في يد مسلم ولا معاهد فهي له أو من أحيا أرضاً مواتاً فهو أحق بها) (الزبيدي، مصدر سابق، ص١٣٦)، هذا من جانب ومن جانب آخر فقد عمدوا إلى إصدار الأوامر بحفر الأنهار وشق القنوات وإقامة الجسور والمسنيات (وهي سدود تتكون من القش والتراب تقام في وجه المياه الجارية)، كما اهتموا بأمر البطائح وتجفيفها من أجل زيادة رقعة الأراضي الزراعية والتي توسعت بحيث امتدت من الأراضي المجاورة للكوفة حتى حدود واسط (ابن حوقل، صورة الأرض، ص٢٣٨).

كان توزيع الأراضي الزراعية قد شمل ثلاثة أنواع منها أراضي الصلح وهي الأراضي التي صالح أهلها المسلمين وبقيت ملكيتها بيدهم لقاء دفع ضريبة واحدة عنها، والأراضي التي فتحت عنوة بحد السيف فلا تباع ولا تشترى وتبقى ملكاً لصاحبها يستغلها في الزراعة، أما الشكل الثالث فهي الاقطاعيات والتي شملت سواد الكوفة وهي ملكٌ مشاعٌ بين المسلمين تضم معها الأراضي التي تقع في داخل مدينة الكوفة وقطائع عامة.

واعتمد في ري الأراضي الزراعية هذه على مياه نهر الفرات فهو المصدر الرئيسي في ذلك وكذلك على الأنهار الصغيرة التي شقت من نهر الفرات والتي أهمها: (نهر سورا) الذي يأخذه مياهه من نهر الفرات قاطعاً القرية المعروفة بالجديدة ويكون مجراه ما بين قرى الكفل وقرية القاسم

ويروي المحاصيل الزراعية والقرى الزراعية أولاً، وللاستخدامات البشرية ثانياً، وينتهي في البطائح، ونهر (ابا) وهو نهر يقع بين الكوفة وقصر ابن هبيرة) ونهر (البويب) الذي يأخذ مياهه من الفرات حيث يكون مجراه في الكوفة ويصب بالجوف العتيق، أما نهر (شبيلي) فإنه يجري في ناحية من نواحي الكوفة والذي يعرف اليوم بنهر زياد ويكون ماخذه من الفرات عن نهر (الصنين) ونهر (عين جمل) الذي هو أحد الأنهار الصغيرة التي شقت عبر الجبانات وتنتهي في الأراضي المنخفضة في بحر النجف. أما القنوات فقد شقت قناتان رئيسيتان عرفتا باسم (قناتي الجامع والمبارك) (راجع شكل رقم١).

استخدم أهل الكوفة وسائل ري صناعية لنقل المياه من نهر الفرات وجداول الري والتي منها (الدالية) و(الناعور) والتي تستخدم في رفع المياه من مصادرها عند انخفاض منسوبها، وقد ساهمت في توسيع مساحة الأراضي الزراعية وزيادة الانتاج وكثافة المحاصيل الزراعية والأشجار لدرجة كان يصعب من خلالها التمييز بين المزارع فكان سواد الكوفة سواداً مشتبكاً غير متميز تخترقه شبكة الأنهار المتفرعة من نهر الفرات (الاصطخري، المسالك والممالك، ص٥٩)، وامتد سواد الكوفة من غرب نهر الفرات والحيرة والقادسية حتى حدود الصحراء.

مورست في تلك الأراضي الزراعية وسواد الكوفة عامة زراعة محاصيل متعددة كان في مقدمتها النخيل إذ كان سواد الكوفة من أكثر المناطق التي اشتهرت بزراعته وقد امتدت بساتين النخيل حتى الأنبار وهيت (الاصطخري، المصدر السابق ص٥٨) كما اشتهرت الكوفة بزراعة الحنطة والشعير وقصب السكر، واشتهرت كذلك بزراعة الرز في منطقة البطائح في ضمن الأراضي المنخفضة والأهوار وعلى قنوات الفرات السفلى بين سورا والصراه والنيل (الزبيدي، مصدر سابق، ص١٤٠).

وتعد زراعة أشجار الفاكهة قديمة في هذه الأراضي الزراعية، وكانت أشجار الكروم من أكثرها وأشهرها بحيث كثرت أنواعها وتعددت أصنافها وما كان مشهوراً منها هو عنب (دير العاقول) و(عكرا) و(حلوان) و(عنب سروج)، واشتهرت الكوفة بسعة بساتينها والتي كانت تضم إلى جانب أشجار الكروم أشجاراً أخرى أحاطت بالكوفة منذ أن سكنتها الأديرات حتى وصفها لنا (الشابشتي) بقوله (كانت في الكوفة الأديرات تحوي كل أديرة على مائة بيت للرهبان وحول كل بيت بساتين كبيرة فيها الكثير من الثمار والنخيل والزيتون وتجري فيها الأنهار) (الشابشتي، الديارات، ص١٧١)، وأصبحت هذه البساتين عند دخول العرب إلى الكوفة أكثر سعة وعمراناً بعد أن عمروها وأزادوا فيها وكان من أشهرها تلك البساتين والذي لايزال اسمه معروفاً هو بستان (زائدة) والذي يقع في ضاحية السبخة وهي إحدى ضواحي الكوفة (الجنابي، مصدر سابق، ص٥٢).

ثانياً: النشاط الحرفي

حظي النشاط الحرفي في العراق عامة والكوفة خاصة بدرجة كبيرة من التطور فمنذ أن قدم العرب والمسلمون واستقروا في الكوفة ومارسوا ذلك النشاط وأبدعوا فيه وإذا ما استعرضنا ما جاء به الجغرافيون والبلدانيون والرحالة عن الإنتاج الحرفي في الكوفة فيتضح لنا بأنها كانت مركزاً لصناعة المنسوجات الحريرية حيث عدت هذه الصناعة من أقدم الصناعات اليدوية والتي تطورت مع مرور الزمن حيث أصبح الكوفيون ذوي شهرة ومهارة وخاصة في العديد من فروعها ومنها: (صناعة الوشي) وهو نسيج حريري مطرز وكذلك صناعة (الخز) والتي تتخصص بصناعة عمائم الخز المشهورة آنذاك فضلاً عن صناعة العطور (المقدسي، مصدر سابق، ص١١٨).

واشتهرت الكوفة بصناعة البسط والسجاد بأنواعه والخيام ونالت تلك الصناعات شهرة واسعة حيث كان الكوفيون يتفننون في تلك الصناعات والتي تعتمد على الصوف أو الشعر أو الوبر، كما وجدت صناعة الحصر والتي اعتمدت على مادتها الأولية من سعف النخيل وأوراقه والبردي والحلفا، والقصب والتي تكثر في منطقة البطائح.

وانتشرت في الكوفة صناعة استخراج الدهون من بذور السمسم والقطن وصار لهذه الصناعة سوقٌ عرف (بسوق الزياتين) كما برع الكوفيون في صنع أواني الفخار الدقيقة الصنع والمزينة بنقوش بارزة من النوع المعروف (البارابوتين) ومنها ما هو مطلي بدهان مزجج متعدد الألواج، وكذلك صنع قوارير الزجاج وقطع الآجر المزجج والأقداح وبعض أواني النحاس فضلاً عن صناعة الأسلحة وتجارتها، وقد تاسس لها سوق عرف (بسوق الحدادين)، وقد كان لهذه الأنشطة الحرفية مكانتها بين المدن العربية الإسلامية بحيث دفع ذلك أحد رجال الكوفة والمعروف (بابي بكر الهذالي) أن يفخر بما وصلت إليه مدينته ومقارنتها بالبصرة بقوله: (نحن الكوفيون أكثر منكم ساجاً وعاجاً وديباجا).

وانتقلت إلى مدينة الكوفة بعد تأسيسها صناعة (الصياغة) من العرب القادمين من الحيرة والمدينة بحيث لاقت هذه الصناعة رواجاً كبيراً وتأسَسَ سوق كبير حمل اسم (سوق الصياغة).

وكذلك انتشرت حرف ثانوية حملت أسماء أسواقها منها سوق الوراقين والنجارين والبقالين والقصارين (محوري الثياب) وباعة الأزهار والرسامين وغير ذلك كثير.

تعتبر حرفة التجارة من الأنشطة الاقتصادية التي تطورت في مدينة الكوفة ابتداء من تأسيس دار الرزق والكناسة اللتين تقعان في مناطق محددة وفق تخطيط المدينة، وقد شهد هذا النشاط ازدهاراً وتطوراً كان نتيجة تفاعل مجموعة من العوامل منها:

١- **الموقع الجغرافي**: وصف الجغرافيون بأن الموقع الجغرافي لمدينة الكوفة ذو أهمية كبيرة عكس مجمل أنشطتها التجارية، فوقوعها على نهر الفرات جعلها تتصل في الشمال بحلب وأنطاكية ثم البحر المتوسط كما تمكنت عن طريق نهر الفرات أيضاً أن تتصل جنوباً بالهند عن طريق الخليج العربي.

قدَّر هذا الموقع لها أن تشرف على طرق المواصلات التجارية السائدة آنذاك فقد أصبحت محطة تجارية للتجار الروس الخارجين من الأندلس بعد مرورهم بدمشق ومنها يتوجهون إلى البصرة ثم إلى بلاد فارس، كما أن وضعها مركزاً للطريق البري الذي يصل الموصل بدمشق عن طريق الحيرة.

وقدر لموقعها الجغرافي هذا أيضاً أن يجعلها تتمتع بمكانة مرموقة في عالم التجارة مع شبه الجزيرة العربية لموقعها على طريق البادية إذ تلتقي عندها القوافل القادمة من مكة والذاهبة إليها كما أن موقعها على الطريق البري ربطها مع البصرة عبر بادية الكوفة وبادية البصرة.(ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص١٢٥، ٩٩).

٢- والعامل الآخر والمهم يتمثل بسكان الحيرة الذين نزحوا إلى هذه المدينة بعد تأسيسها فقد كان لهم دور كبير في تنشيط التجارة في المدينة لما يمتلكونه من خبرة واسعة وممارسة طويلة في هذا الميدان.

٣- وكان لتشجيع الولاة والخلفاء العرب الساكنين في الكوفة أثره في تطوير الأنشطة الزراعية والحرفية وما رافقها من زيادة في الإنتاج والتصدير ووفرة الأموال والتي شجعت عمليات التبادل التجاري ونشاط النظام الصيرفي وبالتالي تكوين وبناء علاقات تجارية مع المدن والمناطق المجاورة، ولأجل تطوير ذلك فقد تم القيام بعدد من المشاريع التي سهلت عملية التبادل التجاري في المدينة سواء أكان ذلك بإقامة الجسور أم بتوفير الأمن والاستقرار للقوافل القادمة والخارجة من المدينة وإنارة الطرق ليلاً وتقديم التسهيلات للعمليات التجارية.

ونشأ من خلال تفاعل تلك العوامل عمليات تجارية متعددة وكان مركزها (دار الرزق) ومنطقة الكناسة، ودار الرزق هذه تقع عند مخرج الجسر المنصوب على نهر الفرات وبالقرب من شارع اليهود، أي بين الجسر في شرق الكوفة وبين المحل المعروف (بالنبي يونس) ومقامه المعروف في الكوفة والقائم على النهر في وسط العمارات شمال غربي الجامع، وعلى هذا فإن (دار الرزق) كان موقعها في المحل المعروف اليوم (بسوق آل شمسة) أو قريباً منه.(الجبوري، مصدر سابق ص٢٦). وكان يُجمع في هذا الدار متاع المقاتلين وأموال الصدقات وغنائم الحرب قبل توزيعها على المقاتلين، ثم أصبحت دار الرزق مكاناً واسعاً للنشاط التجاري تُناخ فيها الإبل التي تحمل البضائع، وبقربها يتم تفريغ وتحميل البضائع من السفن القادمة أو الخارجة من الكوفة، كما لعبت هذه الدار دوراً مهماً وأساسياً في الحركات والاضطرابات والفتن الداخلية التي حدثت في الكوفة خلال تاريخها الطويل بعد أن أصبحت هذه الدار مكاناً للمضاربات الاقتصادية.

أما (الكناسة) فهي المركز التجاري الثاني الذي نشأ في الكوفة وهي تقع إلى جوار دار الرزق، والكناسة سوق كبير يشبه سوق المربد في البصرة وعد مركزاً تجارياً مهماً ارتبطت به عدد من الأسواق القريبة منه كسوق الرقيق والبزازين وغيرهما.

نشطت الحياة التجارية في الكوفة من خلال عمليات التبادل التجاري بينها وبين المناطق المجاورة حيث كانت تقوم بتزويد مدن العراق والجزيرة العربية أولاً، والدول الأجنبية بصورة عامة ثانياً بما تحتاجه من منتجات، واعتمدت تجارتها في ذلك على نهر الفرات الذي ربطها بالبصرة والخليج العربي فقد كانت تسير القوافل التجارية النهرية عبرة حاملة أنواعاً متعددة من البضائع إلى البصرة والهند والصين، ونشطت تجارتها الخارجية عبر الطرق البرية لوقوعها على حافة الصحراء والتي تربطها مع شبه الجزيرة العربية بإيران عبر الجسر المنصوب على نهر الفرات والذي يبقى منصوباً على الدوام لأجل العبور إلى الطريق التجاري الكبير والذي يربط أعالي آسيا بأقصى اليمن عن طريقين يرتبطان معها هما طريق يربطها بنجد والآخر طريق الأحساء.(ماسينيون، مصدر سابق، ص٢٩).

تضمنت صادرات الكوفة المنتجات المحلية التي اشتهرت بها والتي منها مناديل الخز الكوفية والوشي وأنواع الدهون والعطور والفاكهة والتمور، أما وارداتها فكانت تعتمد فيها على المدن العربية الإسلامية المجاورة وخاصة البصرة حيث تستورد منها ماء الورد والحناء، ومن الموصل تستورد الستور والمسوح وأقمشة الموسلين فضلاً عن الحنطة والشعير والعسل، على حين تستورد من واسط البسط والستور والحصر، أما وارداتها من المناطق المجاورة وخاصة (المدينة) حاضرة الامبراطورية الإسلامية فقد كانت تستورد منها الخيول العربية الأصيلة. فضلاً عن ذلك فإن وارداتها من

الرمان والتين فمن حلوان والزيت والصابون من الرقة.(المقدسي أحسن التقاسيم، مصدر سابق، ص١٤١، ١٤٥).

لم يتوقف نشاطها التجاري عند ذلك فقد امتد إلى الدول الأجنبية المجاورة فقد نشطت تجارتها مع شبه القارة الهندية عبر الخليج العربي، فكانت تستورد من الهند التوابل والكافور وجوز الهند والأبنوس والياقوت، على حين نشطت تجارتها مع الصين من خلال تصديرها لها الخزف بأنواعه والأواني المزججة والتمور الفواكه، واقتصرت وارداتها منها على الحرير والديباج والمسك وأواني الفضة والذهب.(ابن خرداذبة، المسالك والممالك، مصدر سابق، ص٦٩ و ٧٠).

كانت الصيرفة عملاً كبيراً ورائجاً في أسواق الكوفة التي اتخذت مركزاً لعقد الصفقات التجارية الواسعة، إذ أتقنت الكوفة العمل الصيرفي ونظمته بشكل يشبه البنوك والمصارف الحديثة.

يظهر لنا أخيراً بأن مدينة الكوفة ومنذ تاسيسها لعبت دوراً فاعلاً في التاريخ العربي الإسلامية خصوصاً بعد أن أصبحت عاصمة للخلافة العربية الإسلامية خلال فترة خلافة الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام)، مما ضاعف ذلك من مكانتها وأهميتها في مجمل شؤون العراق الاقتصادية والسياسية والتجارية، وقد أوضحنا بأن الجغرافيين أكدوا أن أهمية موقعها بالنسبة للطرق التجارية السائدة آنذاك جعلها ترتبط مع بلاد فارس شرقاً وبدمشق عبر الحيرة غرباً فضلاً عن طرقها البرية التي تربطها بشبه الجزيرة العربية عبر بادية البصرة، ولا ننسى طريقها النهري عبر نهر الفرات فقد كانت أهميته قد ارتبطت من خلال اتصاله بالخليج العربي ومنه إلى جنوب شرق آسيا والذي نشط من تجارتها مع الهند والصين.

بدأت مدينة الكوفة تفقد أهميتها التجارية تدريجياً والذي تمثل بظهور بوادر الضعف والانحلال في أوجه أنشطها الاقتصادية وكان ذلك نتيجة تفاعل مجموعة من العوامل كان في مقدمتها هو عدم إمكانية مدينة الكوفة من الاستمرار في الحفاظ على هذا الموقع على نهر الفرات أولاً وطريقها التجاري النهري الذي كان يفضله التجار لسهولته ورخصه ثانياً، فضلاً عن ظهور مدينتي واسط وبغداد ونافتهما لها ثالثاً، لقد تحول الطريق التجاري إليهما والذي فضله التجار لعاملين رئيسيين هما: أن منطقة البطائح التي تحيط بمدينة واسط تخلو من التشعبات مقارنة ببطائح الكوفة والتي تكثر فيها التعرجات والتشعبات وعدم توفر الأمن، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن اتصال بغداد وواسط بالبصرة عبر شط العرب وبالتالي الخليج العربي والعالم الخارجي قصيراً وسهلاً وأقل عرضة للمخاطر مقارنة بطريق الكوفة عبر الفرات.

فضلاً عن ذلك كله فإنّ لموقع مدينة بغداد الجغرافي على نهر دجلة جعلها مركز جذب اجتماعي واقتصادي خاصة بعد أن أصبحت عاصمة للدولة العربية الإسلامية فيما بعد وساهمت عوامل أخرى في ذلك الضعف والانحلال الذي وصلت له مدينة الكوفة والتي منها: تعرضها للهجمات التي كانت تشنها قبائل فارسية من جهتها الشرقية وقبائل بدوية غير متحضرة تغزوها بين فترة وأخرى من جهتها الغربية بحيث كان تأثير ذلك واضحاً في تغير معالم المدينة الحضرية فأصبحت محطة للنزاعات والفتن والمضاربات الاقتصادية والتي أخذ نطاقها يتسع حتى القرن الثامن الهجري.

ظهرت معالم التحلل والانهيار منذ القرن الرابع الهجري وما بعده والذي تمثل في نقل أعمالها وسوادها فأصبحت مضافة إلى مدينة السلام ومرفوعة أعمالها إلى دواوينها (ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سابق، ص٢١٥). ويؤكد لنا المقدسي أيضاً ذلك بقوله أن مدينة الكوفة (أصبحت بلد محتل قد خرب أطرافه بعد أن كانت نظير بغداد.(المقدسي، مصدر سابق، ص١٩٠). وقد استمر ذلك الوضع حتى القرن الثامن الهجري حيث توالى عليها التدهور والخراب وهجرها أهلها وضعفت مكانتها.

الخلاصة والاستنتاجات

أظهرت لنا الدراسة بأن العراق ومنذ القدم هو مهد الحضارات وتاسيس المدن العربية التي شهد لها التاريخ، وأن تاسيس تلك المدن وفي مقدمتها مدينة الكوفة كان نتائج تفاعل العوامل الجغرافية والتاريخية والتي أسهمت في تطورها، ومن النتائج التي توصلنا لها:

١- توصل البحث إلى أن العراق كان المركز الرئيسي لظهور وتطور المدن من خلال موقعه الجغرافي في وسط العالم القديم كما أن موقعه يشكل حجر الزاوية للأمة العربية الإسلامية التي اتخذت من مدنه ومنها الكوفة مقراً وعاصمة للامبراطورية العربية الإسلامية.

٢- توصل البحث في فصله الأول إلى تحديد واضح لأهمية الموقع الجغرافي في نشأة مدينة الكوفة وتطورها، وأن ما أطلق عليها من تسميات قد استمد من الواقع البيئي الذي شغلته خاصة فيما يتعلق بطبيعة تربتها وأن تسميتها قد استمدت من الوضع الطوبغرافي لأرضها.

وناقش الفصل نشأة مدينة الكوفة وتبين من خلاله بأن أهم العوامل الكامنة وراء نشأتها قد ارتبطت ببيئاتها الطبيعة والمتمثلة بموقعها الجغرافي على نهر الفرات وحافة الهضبة الغربية أولاً وما يشكله من حلقة أو نقطة تشرف على طرق المواصلات التي تربط مركز الدولة الإسلامية بالجيوش العربية المتقدمة في الفتوحات، فضلاً عما امتاز به هذا الموقع من

خصائص مناخية فضلتها لأن تكون المدينة المنتخبة بدلاً من المدائن.

٣- كما استنتج البحث أن الوضع الطوبغرافي لمدينة الكوفة قد حظي باهتمام الجغرافيين القدماء وما ورد في الفكر الجغرافي عامة إذ تمكنا من خلال ذلك من التوصل إلى أن المناخ هو أحد عناصر البيئة الجغرافية التي أخذت بنظر الاعتبار عند اختيار موضعها، إلاّ أن ارتفاع أرضها مقارنة بأرض المدائن المنخفضة، وخصوبة تربتها كانت من العوامل الأساسية في اختيار موضعها أيضاً، حيث كان تحديد مواقع المدن المختارة ومنها موضع بحثنا (مدينة الكوفة) وفق تلك الأسس، فقد تميزت عن المدائن وعن البصرة بارتفاعها واعتدال مناخها لوقوعها ضمن النقطة التي تتعرض لهبوب رياح شمالية تسهم في خفض درجات الحرارة المرتفعة وتقلل من وخومة الجو ورطوبته، كما أمكن التوصل إلى حقيقة جوهرية مهمة هي أن العرب هم أول شعوب العالم التي توصلت إلى إيجاد العلاقة بين طبيعة تلك الخصائص وصحة الإنسان.

وتمكن البحث من التوصل إلى أن تخطيط المدن العربية الإسلامية ومنها مدينة الكوفة كان يأخذ بنظر الاعتبار عناصر البيئة الجغرافية، فقد اختطوا معالمهم المدنية ابتداءً من تأسيس مسجدها المقدس وانتهاء بدور السكن وفق الأساس الطوبغرافي لمدينتهم والذي تم على ضوئه تحديد المناطق السكنية السبعة والمناهج والأسواق وفق قياسات معينة تأخذ بنظر الاعتبار ما سيطرأ على المدينة من توسع في المستقبل.

٤- وتبين من خلال البحث بأنّ الحياة الاقتصادية في مدينة الكوفة اعتمدت على أنشطة زراعية وحرفية وتجارية وكان لها أثرها في تطور المدينة وازدهارها، فقد شهدت الكوفة نشاطاً زراعياً اعتمد على خصوبة تربتها ووفرة مياه الري من نهر الفرات وجداوله فضلاً عما ساهم به الولاة من تشجيع للمقاتلين العرب في ممارسة الزراعة فتعددت المحاصيل الزراعية وازدادت كثافتها وتوسعت بساتينها فكان سواد الكوفة الذي لم يشبهه سواد في كثافة محاصيله وأشجاره، كما شهدت تطوراً في الحرف الصناعية برع الكوفيون في الكثير من أشكالها في حين كان نشاطها التجاري لم تشهد مثله المدن العربية الأخرى حيث تاسست على أرضها أقدم وأكثر الأسواق التجارية تطوراً في تلك الفترة الزمنية من نشأتها والذي تمثل بسوقي دار الرزق والكناسة واللذين شهدا تطوراً في أنظمتها المصرفية لم تضاهها أي سوق أخرى.

تبوأت مدينة الكوفة مكانة دينية وعلمية كانت تحسد عليهما، فقد كانت مركزا لحدث اجتماعي عظيم بتأسيس المسجد الجامع، وعاصمة للحضارة العربية الإسلامية ومركزاً دينياً مقدساً اشتهر بكثرة مساجده. أو لاتزال على أراضيها الاثار الإسلامية من مساجد وضرائح تنوف أية مدينة أخرى.

وأسهمت الكوفة في تأسيس المدارس النحوية والأدبية ففيها وضعت اللبنات العتيدة الأولى لمدرسة الكوفة في النحو والتي عرفت باسمها ونشأت على أرضها المجموعة العتيدة والنفيسة لنهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام) والحاوية على الخطب والمواعظ التي لم تظهر قبلها أو بعدها أخرى. وفي الشعر فقد أبدع الكوفيون في تحويل الذخائر الماضية – الحماسات والمعلقات- ونبغ على أرضها آلاف من علماء اللغة والدين شهد لهم التاريخ في السياسة والاقتصاد.

مصادر البحث:

١- ابن حوقل: أبو القاسم ابن حوقل النصيبي، صورة الأرض، منشورات دار الحياة بيروت – لبنان.

٢- ابن خرداذبة: أبو القاسم عبيد الله ابن عبد الله (ت ٣٠٠هـ)، المسالك والممالك، ويليه نبذة عن كتاب الخراج وصنعه الكتابة لأبي فرج قدامة بن جعفر، مطبعة بريل – ليدن ١٨٨٩م.

٣- ابن قتيبة: أبي محمد بن عبد الله بن مسلم الدينوري، عيون الأخبار، المجلد الأول، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة (١٣٤٣هـ - ١٩٢٥م).

٤- الاصطخري: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد المعروف بـ (الكرخي) (ت١٤٦هـ) المسالك والممالك، المجلد الأول، (١٣٨١هـ - ١٩٦١).

٥- الاصطخري: مسالك الممالك، كتاب معول على (صورة الأقاليم) للشيخ أبي زيد أحمد بن سهل البلخي، طبعة ليدن، ١٩٣٧م.

٦- الأعرجي: محمد حسن عيسى، الشعر في الكوفة، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة بغداد، نيسان ١٩٧٣م.

٧- البراقي: حسين بن السيد أحمد، تاريخ الكوفة، منشورات المكتبة المرتضوية النجف الأشرف ١٩٦٠م.

٨- البلاذري: أبو الحسن أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، الجزء الثاني ١٩٥٧م.

٩- الجبوري: كامل سلمان، موسوعة تاريخ الكوفة، تاريخ الكوفة الحديث. الجزء الأول، الطبعة الأولى، مطبعة الغري، النجف الأشرف (١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م).

١٠- الجنابي: كاظم، تخطيط مدينة الكوفة، (عن المصادر التاريخية والأثرية) بغداد (١٣٨٦هـ - ١٩٦٧م).

١١- حسونة: محمد أحمد، أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، مكتبة النهضة، مصر ١٩٦٠م.

١٢- الحموي: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت عبد الله، معجم البلدان، المجلد الرابع، دار صادر، بيروت، (بدون سنة طبع).
١٣- الزبيدي: محمد حسين، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الأول الهجري، جامعة بغداد، ١٩٧٠م.
١٤- سلمان: عيسى وزملائه، العمرات العربية الإسلامية في العراق، الجزء الأول وزارة الثقافة والإعلام، السلسلة الفنية (٥١). دار الرشيد للنشر ١٩٨٢م.
١٥- الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد (ت٣٨٨هـ)، الديارات، بغداد ١٩٦٦م.
١٦- علي: معن حمدان، مباحث عراقية في الجغرافية والتاريخ والآثار وخطط بغداد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، ١٩٨١م.
١٧- العميد: طاهر مظفر، تخطيط المدن العربية الإسلامية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، مطبعة جامعة بغداد: ١٩٨٦م.
١٨- القزويني: زكريا بن محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر بيروت، ١٩٦٩م.
١٩- كامل: أحمد عادل، فتوح الشرق - بعد القادسية، دار الفكر، بيروت، بدون سنة.
٢٠- ماسنيون: المسيو لويس ماسنيون، خطط الكوفة وشرح خريطتها، ترجمة محمد المصعبي، تحقيق كامل سلمان الجبوري، منشورات مطبعة الغري الحديثة في النجف الأشرف، ١٩٧٩م، الطبعة الأولى.
٢١- محبوبة: جعفر الشيخ باقر، ماضي النجف وحاضرها، مطبعة الآداب، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م.
٢٢- المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، (ت١٤٦هـ) مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء الثاني، والجزء الثالث، مطبعة السعادة مصر.
٢٣- المقدسي: شمس الدين أبو عبد الله بن محمد بن أبي بكر، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن ١٩٠٦م.
٢٤- الموسوي: مصطفى عباس، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية، العراق، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٢م.
٢٥- يوسف: خليف، حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة، وزارة الثقافة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م.

* * *

صورة لمسجد الكوفة المعظم سنة ١٩٣٥م ويظهر فيها أغلب مقامات المسجد المعظم